قول ١:١-١٢
مقدمة الرسالة: عنوان وتحيات، شكر وصلاة

الأب أيوب شهوان

مقدمة

ثلاثة مواضيع يستهل بها بولس الرسول رسالته إلى القولسيين، تجعل قارئها يشعر وكأنه على معرفة سابقة مع كاتبها، وعلى مودّة عميقة وعلى موعد منتظر معه. لنحاول أن نفسّر هذه المواضيع ونتبيّن مضمونها.

١/١ – عنوان وتحيات (١:١-٢)

يتبع بولس في رسائله منهجية كانت شائعة في زمانه، فيبدأ بذكر اسمَي المرسِل والمرسَل إليه، ثم بتحيةٍ تأخذ شكلَ التمنّي، وأخيراً ينهي بفعل شكرٍ وصلاة.

"من بولس، رسول" (١:١).

رج غل ١:١؛ ١ قو ١:١-٢؛ أف ١:١-٢؛ روم ١:١.

"الرسول" لقب خاص بتلاميذ يسوع الاثني عشر (متّى ١٩:٢٨-٢٠؛ مر ١٤:٣)، كان مألوفاً عند اليهود (يو ١٦:١٣؛ ٢ قو ٨:٢٣؛ فل ٢:٢٥)، وصار في العهد الجديد لقباً للتلاميذ الذين اختارهم يسوع (متّى ١٠:٢؛ أع ١:٢٦؛ ٢:٣٧؛ ١ قو ١٥:٧؛ رؤ ٢١:١٤)، كما للمنادين بالإنجيل في وجه عام (روم ١٦:٧؛ ١ قو ١٢:٢٨؛ أف ٢:٢٠؛ ٣:٥؛ ٤:١١). بالطبع لم يكن بولس من عداد الرسل الاثني عشر، لكنه صار بنعمة خاصة رسولاً مساوياً لهم، ولا يقلّ عنهم شأناً (أع ٢٦:١٧؛ روم ١١:١٣؛ ١ قو ٩:٢؛ غل ٢:٨؛ ١ تيم ٢:٧)؛ فمثلهم رأى المسيحَ الحيَّ القائم (١ قو ٩:١)، ومثلهم نال منه مباشرة (غل ١:١ و١٧ و١٩) نعمةَ الرسالة والبشارة (روم ١:٥؛ غل ١:١٦؛ أع ٢٦:١٦). يدعو بولس نفسه "أصغر الرسل" (١ قو ١٥:٩)، دون أن ينقص عنهم بالمقابل بشيء (١ قو ٩:٥؛ غل ٢:٦-٩؛ ٢ قو ١١:٥؛ ١٢:١٢). يشدّد بولس على أن الله نفسه هو الذي دعاه ليكون رسولاً (١ قو ١٥:٩-١٠؛ ٢ قو ٤:١؛ غل ١:١٥)، ويقدم البرهان حول كونه رسولاً، ليواجه به مَن يقول بأنه لم يكن واحداً من الاثني عشر، فيعطي لذاته لقب "رسول" ليركّز على تساويه مع هؤلاء، لأنّ مصدر سلطانه الرسولي هو الرب القائم من الموت بالذات (١ قو ١٥:٩-١٠؛ ٢ قو ٤:١؛ غل ١:١٥) الذي يجعله، في آنٍ معاً، في مصاف الأنبياء الأقدمين.

"وتيموتاوس الأخ" (١:١).

يُشرك بولسُ تيموتاوس هنا في الرسالة، كما في بعض رسائله الأخرى (٢ قو ١:١؛ فل ١:١؛ ١ تس ١:١؛ ٢ تس ١:١؛ ف ١). رافق تيموتاوس بولس في جولتيه الرسوليتين الثانية والثالثة، وكان له اليد اليمنى في وضع أسس كنيسة أفسس (أع ١٩:٢٢)، ثم صار أسقفاً عليها؛ ومن المحتمل أن يكون قد تعرّف هناك إلى كنيسة كولوسي، بواسطة أپفراس (١:٧؛ ٤:١٢-١٣).

أما كلمة "أخ" فكانت شائعةً بين المسيحيين، لأنهم كانوا يعتبرون ذواتهم ضمن عهد أخوّة واحد بالمسيح.

"إلى الأخوة في المسيح القديسين والأمناء" (١:٢).

كان بنو اسرائيل في العهد القديم يُدعَونَ "شعباً مقدساً" (خر ١٩:٦)، لأنّهم كانوا خاصّة الله بطريقة مميزة، كما جاء في خر ١٩:٥: "وتكونون خاصتي المميزة". المعنى الأوّلي إذاً هو القداسة، بمعنى أن الله قد امتلكهم على أنهم له (رج روم ١:٧؛ ٢ قو ٨:٤)، من أجل رسالة مقدسة (١ قو ١:١-٢). يدعو اللهُ

القدوسُ إليه جميعَ الشعوب ليقدّسهم، عبر انخراطهم في شعب الله، عن طريق القداسة (روم ٦:١٩-٢٢؛ ٢ قو ١:١٢؛ ٧:١).

"من الله أبينا" (١:٢).

بالنسبة الى مار بولس، كان الامتياز الوحيد للمسيحي أهليّتَه لمعرفة الله بالطريقة ذاتها التي كانت للمسيح، أي أنّ الله هو "أب" (رج روم ٩:١٥؛ غل ٤:٥).

"نعمة وسلام" (١:٢).

رج ١ تس ١:١؛ ٢ تس ١:٢؛ فيل ١:٢؛ الخ؛ أنظر الصيغة المعدّلة في ١ تيم ١:٢؛ ٢ تيم ١:٢؛ تيط ١:٤؛ ٢ يو ٣؛ رؤ ١:٤.

للوهلة الأولى، تبدو عبارة "نعمة وسلام" وكأنها جمْعٌ بين "شَلُمْ" اليهودية، و"خَيْرِيْنْ" (χαιρειν) الرومانية. لكن هناك أكثر من ذلك، لأنّ بولس يستعمل الكلمتين "نعمة"، وهي من عطايا العهد، و"سلام"، المتضمنتين في البركة الكهنوتية الوارد ذكرها في عد ٦:٢٤-٢٦. أيضاً، لكلمة "خَيْرِيْنْ" (χαιρειν) لون بولُسي من حيث دلالتها على رحمة الله المتجلّية في المسيح يسوع (رج روم ٥:١-١١). الكلمتان هما إيجاز للخير المتجلّي في الزمن المسيحاني. إنهما موجز العطايا الروحية التي يتمنّاها بولس لقرائه.

١/٢ - فعل شكر وصلاة (١:٣-٨)

لفعل الشكر في بداية الرسالة عند بولس طابع روحيّ خاصّ. فالبنسبة إليه، كان من الضروري دائماً إعلان ما كان الله قد أنجزه، وهنا حصراً دعوته الجماعة الى الايمان، وجعله إياها تنمو من خلال تقاسمها هذه العطية مع الآخرين. يشدّد الرسول على فعل الشكر ان خصوصاً في هذه الرسالة (١:١٢؛ ٢:٧؛ ٣:١٥-١٧؛ ٤:٢)، مقروناً بالصلاة، والثناء على العيش المسيحي في الايمان والمحبة والرجاء.

"ربنا يسوع المسيح" (١:٣).

في الجماعات ذات الأصل اليوناني، كان اعتراف المسيحيين عند العماد يقضي بإعلان إيمانهم بأن يسوع هو "ربّ" (روم ١٠:٩). كانت العبارة أهلاً لأن تعلن الايمان المطلق بالمسيح.

"الايمان...، المحبة...، والرجاء" (١:٤-٥).

نصادف المثلث، "الايمان، والمحبة، والرجاء"، في ١ قو ١٣:١٣؛ ١ تس ١:٣؛ ٥:٨. لقد جمع بولس هذه الفضائل الثلاث في أولى رسائله (١ تس ١:٣)، ثم ردّدها في رسائله مرّات عدة، دون الحفاظ على الترتيب عينه في كل مرة (١ تس ٥:٨؛ ١ قو ١٣:٧؛ غل ٥:٥-١٦؛ ١ تيم ٦:١١؛ تيط ٢:٢). على الأرجح إنّ هذا تقليد سابق لبولس (عب ٦:١٠-١٢؛ ١٠:٢٢-٢٤؛ ١ بط ١:٣-٩ و٢١). أحياناً، يجمع الرسول معاً الايمانَ والمحبة (١ تس ٣:٦؛ ٢ تس ١:٣؛ ف ٥)، أو الثباتَ والايمان (٢ تس ١:٤)، أو المحبةَ والثّبات (٢ تس ٣:٥؛ ٢ قو ١٣:١٣).

"المحبّة"، هنا في قول ١:٤-٥، معطوفة على "الايمان"، أما "الرجاء" فمفصول بحرف جارٍّ يعني "من أجل"، تعبيراً، لا عن فعل الرجاء فحسب، بل عمّا يحتويه من انتظار أكيد لوعدٍ كبيرٍ آتٍ (١:٣-٤؛ أف ١:١٨؛ عب ٦:١٩؛ ١ بط ١:٤). يعبّر "الايمان" عن الطاعة أو عن الالتزام تجاه المسيح (روم ١:٥). عندما يلحق المؤمن بالمسيح، يفهم "محبة" الله العظمى للناس، ويشارك في رسالة المسيح لإظهارها للآخرين، لأن "الايمان يعمل من خلال المحبة" (غل ٥:٦). أمّا "الرجاء" فهو نتيجة الاثنين.

"العالم كله" (١:٦).

يشدد بولس على أنّ الانجيل بكلّ قوّته يبلغ كلَّ الناس، ويفعل فعلَه فيهم؛ هذه الشموليّة هي علامة قوة المسيح الكونية، وهذا موضوع رئيسي في الرسالة.

"مثمر ونامٍ" (١:٦).

نصادف هذين الفعلين معاً هنا وفي مر ٤:٨ حيث يَصِفان كيف أنّ بذار كلمة الله هو فعّال بما فيه الكفاية كي يعطي ثلاثين وستّين ومائة. في تفكير بولس، الانجيل قوّة "مثمرة" و"نامية" أبداً، ولا شيء يعوقها عن "الإثمار والنموّ". يطبّق بولس صورة هذا "الإثمار والنموّ" عينها على أهل قولسي أنفسهم (١:١٠).

"أبفراس" (١:٧).

كان أبفراس، تلميذُ بولس من قولوسي، موقوفاً مع الرسول (١:٧؛

١٢:٤؛ ف ٢٣)، ومن المحتمل أن يكون قد آمن على يده في أفسس، ثم نَقَلَ الإيمانَ الى قولسي، وقد يكون الى اللاذقية وهيراپوليس أيضاً (١٣:٤). ذكره بولس ثلاث مرات (١٢:٤). يهدف التّشديد على تعليم "أپفراس" إلى تثبيت مؤمنيّ قولسي على نهج التعليم الصحيح، لئلاّ تستهويهم التعاليم الجديدة الكاذبة.

"محبّتكم في الروح" (٨:١).

لا ذكر "للروح" في هذه الرسالة إلاّ هنا.

١/٣ - صلاة لأجل كنيسة قولسي (١:٩-١٢)

"معرفة مشيئته" (٩:١).

"المعرفة" هي إحدى الكلمات الأساسية في الرسالة (٩:١ و١٠؛ ٢:٢؛ ١٠:٣). لقد كانت معرفة الكون وما يجري فيه موضوعَ مديح اليونانيين. في قولسي كان هناك نوع من المعرفة التي نشرها معلّمون مضلّلون، ولكن لا معلومات واضحة في الرسالة حول هذه المعتقدات التي قد يكون مصدرها يهوديّاً ويونانيّاً في آنٍ معاً. أما المعرفة المسيحية بحسب بولس، فقد كانت على تعارض واضح مع تلك، وكانت قبل كل شيء إدراكاً لإرادة الله بتخليص الناس بالمسيح (٩:١ت) . لم تكن هذه المعرفة وببساطة معرفةً نظرية، بل معرفةٌ شخصية لله بالذات (١٠:١)، واختبارٌ لقصده المُحِبّ بأن يخلّصَ الناسَ بالمسيح (٢:٢)، من خلال تحوّلهم الى صورة ابنه (١٠:٣). يستعمل بولس كلمة "معرفة" بمعناها الساميّ، أي أنها معرفة تأتي من الاختبار الشخصي، أكثر منها معرفة نظرية مكتسبة، بالمعنى اليوناني للكلمة.

"في كل حكمة وفهم روحي" (٩:١).

كلمة "حكمة" هي من الكلمات المميَّزة في قولسي (٩:١ و٢٨؛ ٣:٢ و٢٣؛ ١٦:٣؛ ٥:٤). لبعض التعاليم نوعٌ من "مظهر حكمة" (٢٣:٢)، لكن الحكمة الحقّة (٣:٢) تظهر جليّةً وساطعةً كنور الشمس. إن موضوع "الحكمة" رئيسيٌّ في الرسالة، لأنّ بولس يستعين بأدب العهد القديم الحكميّ بقوّةٍ، ليبرهنَ أنّ للمسيح مكاناً مركزياً في الكون.

يشدّد بولس على موهبتَي "الحكمة والفهم الروحي" المتعلّقتين "بمعرفة مشيئة الله" (٩:١)، ينبوع الحياة المسيحية العملية الأصيلة (٢٨:١؛ ٢:٢-٣ و٢٣؛ ١٦:٣؛ ١٥:٤)، وقد تجلّت في شخص يسوع المسيح (٣:٢)، وينبغي أن تتجلّى بالتالي في المؤمنين "بسلوكٍ جدير بالرب" (١٠:٢؛ ١٥:٤).

من الملاحظ أن بولس يردّد المفردات المرادفة، مثل: "معرفة - حكمة" (٩:١)، "نصلّي - نسأل" (٩:١)، "مشمرين - نامين" (١٠:١)، "ثبات - أناة" (١١:١)، الخ.

"بالثبات والأناة" (١١:١).

يفرض عيشُ الإيمان الجهادَ المتواصلَ، مقروناً بفضيلتَي "الثبات والأناة" (١١:١).

تركز الآيات ١٢-١٤ التي موضوعها هو دخول المؤمنين الى الشركة في الملكوت المسيحانيّ، على سرّ المسيح الفصحي، وكأنها تقديم لموضوع الرسالة الأساسي، أي "أولوية المسيح" (١٥:١-٢٠). هناك نصٌّ موازٍ في أع ١٨:٢٦ حيث نجد مواضيع "سلطان الظلام"، "الانتقال الى ملكوت المسيح"، "الميراث"، "مغفرة الخطايا"، "الشركة مع القديسين"، الخ؛ إنّ في هذا دليلاً على وجود تقليد ليتورجي مشترك لدى الجماعة المسيحية الأولى، في إطار عيد الفصح الجديد، عيد العبور من العبودية الى الحرية بموت المسيح وقيامته، من الظلام الى النور، للاشتراك في "ميراث القديسين" مع المسيح.

" القسمة في ميراث القديسين" (١٢:١).

في العهد القديم، كانت كلمة "ميراث" تعني حصراً الأرض (يش ١٤-١٩). لم تتلقَّ قبيلة لاوي ميراثاً، لأن الربّ ذاته كان ميراثَها (يش ١٤:١٣). فلأنّ المسيحي هو عضو في شعب الله الكهنوتي (١ بط ٩:٢)، فإن ميراثه هو حضور الرب المتواصل. إنّ للعديد من تعابير بولس في هذه الآية ("ميراث"، "قديسين"، "نور"، "سلطان الظلمة") موازاةً لافتةً في بعض نصوص قمران (1QS 3:1; 11:7-8).

"القسمة في الميراث" تعبير من العهد القديم، كان يعني القسمة المحفوظة لكل أسباط شعب الله في أرض الميعاد، ميراثه (يش ١٤:١-٥)، وصار يعني لدى بولس مشاركة جميع الشعوب الوثنية مع شعب الله في "ميراث القديسين" (أف ١:١١-١٤؛ ٢:١١-٢٢). و"القديسون" هم المعمَّدون المدعوُّون الى العيش على الأرض في نور الخلاص الأبدي.

قول ١٢:١ هامة بنوع خاص في مجال فهم كنيسة قولسي الناشئة لذاتها؛ تسلّط هذه الآية الضوء على الحقيقة الملفتة للنظر، وهي أنّه كان يُنظَر إلى الوثنيين المرتدّين الى الإيمان بالمسيح على أنهم "مؤهَّلين" (ικανωσαντι) للمشاركة في "إرثٍ" كانوا قبلاً غير مؤهّلين له، هو الإرثُ الذي كان يُعتَقَد أنه خاصّة إسرائيل حصراً. إنّ الجملة "القسمة في الميراث"، من حيث طابعها، هي بدون شك يهودية، وتوحي بالكلام الخاصّ بالأرض الموعودة وبإسرائيل كميراث الله (عد ١٨:٢٠؛ تث ١٠:٩؛ ١٢:١٢؛ ١٨:١؛ ٣٢:٩؛ يش ١٤:٣-٤؛ ١٨:٦-٧؛ ١٩:٩ و٤٩ و٥١؛ إر ١٠:١٦؛ ١٢:٩-١٠؛ ٥١:١٩؛ سي ٢٤:١٢؛ ٤٤:٢٣؛ ٤٥:٢٢؛ رج ٢ صم ٢٠:١؛ ١ مل ١٢:١٦). نشهد هنا انتقالاً من المضمون المادي إلى البعدِ الروحي، إلى رجاء المشاركة الأسكاتولوجي في القيامة والحياة بعد الموت في الحياة الأبدية في السماء (دا ١٢:١٣؛ حك ٥:٥؛ شُمُونِه عِسْرِه ١٣؛ أحنوخ ٤٨:٧). ومثير أكثر ما يكون هو الموازاة مع نصوص قمران: "أعطى الله مختاريه حكمة، ومعرفة، وبرّاً، وقدرة، ومجداً، كشيء ممتلك أبداً، وجعلهم يرثون نصيب القديسين" (1Q 11,7-8)؛ "لأجل مجدك طهّرتَ الإنسانَ من الخطيئة كي يكون مقدّساً...، كي يكون واحداً مع أبناء حقيقتك، ويشارك في نصيب قديسيك" (1Q 11,7-8).

خاتمة

من خلال هذه الجولة السريعة على مقدمة رسالة القديس بولس إلى القولسيين، تبيّن لنا أنه، وعلى عادته، يتبع هنا أيضًا منهجية جديدة قديمة في استهلال رسائله، تشدّك في البداية إلى كاتبها، الذي يدفعك في نهاية الأمر إلى الرب يسوع، محور الرسالة، كما يتجلّى ذلك خاصة في قول ١:١٥-٢٠، الذي به وإليه كل شيء.